البداية والنهاية للإنسان في القرآن الكريم

د. محمد عاشور علي
كلية الآداب زوارة– جامعة الزاوية

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف خلق الله محمد ﷺ وعلى آله وصحبه وعلى من سار على هديه واتبع سنته إلى يوم يقوم الناس لرب العالمين.

أما بعد

فقد احتوى بحثي على بعض الأساسيات وبدائيات العنصر البشري كما جمعت بعض الأدلة والآيات القرآنية على ذلك مع إعطاء فكرة عامة بين بداية الإنسان ونهايته من عمل وحسن أو سوء اختباره، ثم أخيراً، أي موطأ تطأه قدما الإنسان بعد خروجه من حياة التعصب والتعب والمشقة.

وهل هو من السعداء أم الأشقياء؟ وبذلك كانت مسيرة الإنسان طويلة وتحفها المشقات، وهي أصعب ما يكون بعد الموت في حياة البرزخ، ثم البعث، ثم الحساب، وكذلك الميزان، والصراط، وغيرها.

فمن منطلق دسامة هذا الموضوع وعجز الإلمام الكافي بحدوده حاولت إعطاء ولو بصيص صغير من الأمل لمحاولة الجزم بأصل الإنسان وتصور طبيعة ومشقة الطريق على الرغم من أن البحث عليه يزال جارياً، كما حاولت ألا أتعرض بالتفسير بالرأي ولو في أبسط الأمور راجياً وداعياً لله تعالى أن أكون قد وفقت ولو قليلاً في بحثي هذا، الذي هو أقرب للتبويب وجمع أدلة العلماء والمفسرين منه إلى التفسير الشخصي والذاتي.

خطة البحث تنقسم على ثلاثة مباحث:

أولاً: أصل الإنسان، والأدلة العلمية على ذلك.

ثانياً: الإنسان، والى ما يفيد به اختياره.

ثالثاً: نهاية الإنسان.

أولاً- أصل الإنسان والأدلة العلمية على ذلك:

يقول تعالى:﴿**هل أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا** ﴾[1] في هذه الآيات يقول الله تعالى: مخبراً عن الإنسان أنه أوجده بعد أن لم يكن شيئاً يذكر لحقارته وضعفه[2].

كما تتضمن الآية إشارة إلى مرحلة بائدة من الدهر لم يكن الإنسان يساوي فيها شيئاً يذكر، " فالمعنى قد أتى على التقرير والتقريب جميعاً، أي أتى على الإنسان قبل زمان قريب حين من الدهر لم يكن منه شيئاً مذكور" أي كان شيئاً منسياً غير مذكور ولم يخلق ولم يكلف[3]، وبذلك فقد مرت الدهور والعصور منذ أن خلق الله الكون إلى لحظة خلق كل واحد منا، فأين كنا، قبل هذه اللحظة، وكيف خلقنا؟ ومما خُلقنا؟.

فالأصل هو منشأ كل شيء وأساسه، فأصل الإنسان هو منشأه وأساسه الذي خلق منه، أي مادة خلقه وإيجاده في هذا الكون، وقد ورد ذلك واضحاً وجلياً في كثير من الآيات القرآنية التي نجدها الواحدة تلو الأخرى تتحدث عن بداية الإنسان منذ خلق آدم عليه السلام.

فتارة تجد الآية والأخرى تخبر أن الإنسان خلق من طين لازب، وتارة أخرى أنه خلق من سلالة من طين، وأخرى من صلصال من حمإ مسنون، وأخرى من ماء دافق، وأيضاً من ماء مهين، وآيات أخرى توضح مراحل الخلق الواحدة تلو الأخرى.

وقال ابن عباس – رضي الله عنه –:(الإنسان هو آدم عليه السلام مرت به أربعون سنة قبل أن ينفخ فيه الروح، وهو ملقى بين مكة والطائف)، وعن ابن عباس أيضاً في رواية الضحاك أنه خلق من طين، فأقام أربعين سنة، ثم من حمإ مسنون أربعين سنة، ثم من صلصال أربعين سنة، ثم خلقه بعد مائة وعشرين سنة،

وزاد ابن مسعود فقال: (أقام وهو من تراب أربعين سنة، فتم خلقه بعد مائة وستين سنة، ثم نفخ فيه الروح وقبل كان جسداً مصوراً تراباً وطيناً لا يذكر ولا يعرف، ولا يدري ما اسمه ولا يراد به ، ثم نفخ فيه الروح فصار مذكوراً).

وقال قتادة: إنما خلق الإنسان حديثاً ما نعلم من خليقة الله جلّ ثناؤه خليقة كانت بعد الإنسان، وفي قوله تعالى:﴿ **هل أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا** ﴾[4]، لأنه خلقه بعد خلق الحيوان كله، ولم يخلق بعد حيواناً.

وقد قيل:" الإنسان" في قوله تعالى:﴿ **هل أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ...** ﴾[5] عنى به الجنس من ذرية آدم، فأن الحين تسعة أشهر، مدة حمل الإنسان في بطن أمه" لم يكن شيئاً مذكوراً" إذا كان علقة ومضغة، لأنه في هذه الحالة جماد لا خطر له.

وقال أبوبكر – رضي الله عنه – لما قرأ هذه الآية: ليتها تمت فلا نُبتلى أي ليت المدة التي أتت على آدم لم تكن شيئاً مذكوراً تمت على ذلك، فلا يلد ولا يُبتلى أولاده[6]، وروي أن الصديق – رضي الله عنه– لما سمع هذه الآية قال: يا ليتها كانت تمت.

يقول جلّ وعلا:[7] ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ* ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ* ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ** ﴾[8].

قال ابن عباس – رضي الله عنه–:(خلق من ألوان، خلق من تراب، ثم من ماء الفرج والرحم، وهي نطفة، ثم علقة، ثم مضغة ثم عظم ثم لحم ونحوه).

وقال قتادة – رضي الله عنه–: هي أطوار الخلق: طور وطور علقة وطور مضغة عظام، ثم يكسو العظام لحماً كما قال في سورة " المؤمنون﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ**﴾[8].

وقال تعالى:﴿**وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا**﴾[9] وقال ابن عباس:" أطواراً" يعني نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، أي طوراً بعد طور إلى تمام الخلق[10].

وقيل:" أطواراً" صبياناً ثم شباباً ثم شيوخاً وضعفاء، ثم أقوياء وقيل: أطواراً أي أنواعاً: صحيحاً، وسقيماً، وبصيراً، وضريراً، وغنياً، وفقيراً، واختلافهم في الأخلاق والأفعال[11].

وقوله تعالى:﴿**فإنا خلقناكم**﴾[12] أي خلقنا أباكم الذي هو أصل البشر، يعني آدم عليه السلام خلق:" من تراب" ثم خلقنا ذريته " من نطفة وهو المني، سمى نطفة لقلته وهو القليل من الماء، وكل ماء قليل في وعاء فهو نطفة، كقول عبد الله بن رواحه – رضي الله عنه – يعاقب نفسه: مالي أراك تكرهين الجنة ... هل أنت إلا نطفة في شنّهْ.[13]

يقول جل وعلا:﴿**إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا**﴾[14].

وقال تعالى:﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ**﴾[15] وغيرها من الآيات.

فالإنسان مخلوق أصلاً من حيث الجنس من عنصر التراب لأن القرآن قرر أن آدم عليه السلام خلق من تراب، ومن طين، ومن حمإ مسنون، ومن صلصال كالفخار وهي عناصر ترجع كلها إلى جوهر واحد وهو التراب، ومنه تفرعت هذه الأحوال[16].

وقال الله تعالى فيما معناه وعزتي وجلالي لأخلقن مما جئت به خلقاً ولأ سلطنك على قبض أرواحهم لقلة رحمتك، ثم ترك قبضة من الأرض فقالت الأرض أتخلق مني خلقاً يكون للنار؟ قال: نعم فبكت الأرض فانفجرت منها العيون إلى يوم القيامة، ثم ترك هذه القبضة ما شاء الله، ثم أخرجها فعجنها طيناً لازباً أي لازقاً مدة، ثم حمأ مسنون أي طيناً أسود مصوراً صورة إنسان أجوف مدة، ثم صلصالاً أي طيناً يابساً كالفخار مدة، ثم جعلها جسداً وألقاه على باب الجنة.

وبذلك كانت الملائكة يعجبون من صفة صورته لأنه لم يكونوا رأوا مثله، فلقد ذكر الله سبحانه وتعالى آدم في القرآن الكريم خمساً وعشرين مرة في خمس وعشرين سورة، وبذلك سوّيت خلقه وصورته والنفخ إجراء الريح في الشيء والروح جسم لطيف، أجرى الله العادة بأن يخلق الحياة في البدن مع ذلك الجسم وحقيقته إضافة خلق إلى خالق فالروح خلق من خلقه إضافة إلى نفسه تشريفاً وتكريماً، ففي قول الله تعالى:﴿**إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا** ﴾[17] فقدم بذلك السمع على البصر[18].

هي إشارة إلى مادة خلق الإنسان وهي أنه خلق من أخلاط وأمشاج، فالمشيج يعني الشيء المختلط من ماء الرجل ونطفة المرأة بعضه في بعض[19].

ويقول الفراء: أمشاج: أخلاط ماء الرجل، وماء المرأة، والدم والعلقة.

ويقال للشيء من هذا إذا خُلط: مشيج لقولك خليط، وممشوج لقولك مخلوط.

وعن ابن عباس قال: يختلط ماء الرجل[20] وقال تعالى في سورة الطارق:﴿**فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ**﴾[21].

فالصلب هنا هو ظهر الرجل والترائب هي عظام الصدر في المرأة حيث تكون القلادة[20]، وقال ابن عباس: الترائب: موضع القلادة وعنه: ما بين ثدييها، والترائب: أربع أضلاع من هذا الجانب[22].

يقول الشماخ:

طوت أحشاء مرتجة لوقت على مشيج سلالته مهين

فرتجت الباب وأرتجته إذا أغلقته، والرتاج الباب ومشيج الشيء مزجه والمشيج كسبب، أي الممزوج، ومثله أمشاج فهو مفرد، والسلالة في الأصل ما تسيل من بين الأصابع من الطين المائع والمهين: أي الحقير(ومرتجة) صفة للأحشاء أي معلقة إلى وقت تمام الحمل[23].

وروي عن ابن مسعود: الأمشاج هي عروق المضغة وعنه: ماء الرجل وماء المرأة وهما لونان، أما عند قتادة: فهي ألوان وأطوار يريد أنها تكون نطفة، ثم علقة، ثم مضغة[24].

ولكن هل ورد في القرآن الكريم ما ينص على أن الإنسان يتحول من نوع إلى نوع آخر، وبذلك لم يرد في القرآن الكريم ولكن الوارد هو تطور خلقه من مرحلة إلى أخرى، وانتقاله من طور إلى طور.

قال تعالى:﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ...**﴾[26].

عن عبد الله بن مسعود قال: حدثنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهو الصادق المصدوق:" أن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يُرسل الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات، رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أم سعيد"[27].

ولعل الجدير بالذكر حقاً هو أن هذه الآية ومثلها قد كانت السبب في اعتناق ودخول بعض من علماء الأجنة الأجانب في هذا الدين الحنيف،وذلك عندما تم حديثاً عن طريق الأجهزة اكتشاف أن الجنين أول ما يخلق في بطن أمه يكون عبارة عن بقعة أو مجتمع أبيض يوجد في وسط الرحم، وهذا ما يسمى بـــ ((النطفة)) ومدة هذا الطور (40) أربعين يوماً، وبعدها ينتقل إلى طور العلقة وهو تجمع دموي أحمر معلق في جدار الرحم، والملفت للنظر هنا أن الاسم وهو (العلقة) جاء مطابقاً لحالة هذا الطور متعلقة بالرحم، ثم ينتقل إلى (طور المضغة) وفيه يصبح الجنين كأنه قطعة ممضوغة وطور يأخذ (40) أربعين يوما في التكوين، وهكذا إلى أن يتم خلق الإنسان[28].

فكل هذه الحقائق عندما رفع علماء الأجنة للقرآن بعد اكتشافهم لها وجدوها مطابقة لما فيه من الآيات البينة، فمن أين لمحمد – صلى الله عليه وسلم – بالأجهزة الحديثة الموجودة في هذا العصر ليتمكن عن طريقها من معرفة هذه

الاكتشافات، وهو الذي يقول في معنى حديث له:(أن كل إنسان يخلق في بطن أمه (40) يوماً نطفة، ثم (40) علقة، ثم (40) يوماً مضغة، ثم يأتي ملك فينفخ فيه الروح ويكتب (3) أشياء: رزقه وأجله، وشقي أم سعيد[29].

ولا ننسى أن الآية أنزلت على نبي أمي في قوم لا يعرفون كثيراً ولا قليلاً من علم التشريح أو علم التكوين.

ثانياً: اختبار الإنسان:

قال تعالى:﴿ **إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا**﴾[30] أي مكناه، وأقدرناه أو دعوناه إلى الإسلام بأدلة العقل والسمع[31]، فالسمع مثلاً كما في قوله تعالى: ﴿**نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا**﴾[32] أي بمعنى نختبره وروى عن ابن عباس(نبتليه) نصرفه خلقاً بعد خلق، لنبتليه بالخير والشر[33]، وقال جل جلاله:﴿ **لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا**﴾[34]، أي جعلنا له سمعاً وبصراً يتمكن بهما من الطاعة والمعصية[35].

يعني جعلناه سميعاً بصيراً لنبتليه فقد جعل الله سمعاً وبصراً ليتمكن من طريقهما من اختيار طريقه، ولكن الذي يدعو للتساؤل وما سبب تقديم السمع على البصر؟.

فأول ما يشق سمع الإنسان وهو جنين في بطن أمه قبل أي حاسة أخرى، والذي يؤكد ذلك (هو قول) أحد العلماء بأن السمع هو أسبق حواس الطفل إلى وصله بالكون الذي يعيش فيه، فهو يستجيب للأصوات أول ميلاده كما أن حاسة السمع تؤدي مهمتها أولاً، ومنذ اللحظة الأولى من ولادته، وحاسة البصر تؤدي مهمتها خلال (عشرة أيام) .

كما أنه من شروط النبوة فما بُعث نبي أصم ولكن الأنبياء منهم من ابتلى بالعمى، كما أن الفاقد للسمع يكون فاقداً للنطق بخلاف الذي يفقد بصره[36].

ومما سبق يتضح أن الله وضع وسائل وقوانين تساعد الإنسان على الوقاية مما يضره في الدنيا أو في الآخرة وبعدها يصبح الإنسان﴿**إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا**﴾[37].

فهو في ذلك إما شقي وإما سعيد، كما جاء في الحديث الصحيح: عن أبي مالك قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم– :" كل الناس يغدُو فبائعٌ نفسه فموبقها أو مُعْتقها"[38].

وفي رواية جابر بن عبد الله – رضي الله عنه– قال: قال: رسول الله – صلي الله عليه وسلم– :" كل مولود على الفطرة حتى يُعرب عنه لسانه إما شاكراً وإما كفوراً"[39]، فكلمتا (شاكراً أو كفوراً) فلابد من الهاء في هديناه، ويجوز أن يكونا حالين من السبيل أي عرفناه السبيل إما سبيلاً شاكراً وإما سبيلاً كفوراً.

وقرأ أبو السمال بفتح الهمزة في(أما) وهي قراءة حسنة، والمعنى إما شاكراً فبتوفيقنا، وأما كفوراً فبسوء اختياره إما شقي وإما سعيد[40].

فمن الناس من يقول إذا كتب الله علي المعصية فلم يعذبني؟، وإذا كتب لي السعادة فلماذا أعمل؟

نرد على من يقول ذلك بقول الله تعالى: ﴿**وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ**﴾[41]، وقال تعالى:" ﴿**وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً**﴾[42]، وقوله تعالى:﴿ **وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ** ﴾[43].

إن الله لم يكتب عليك المعصية، ولم يكن ليظلمك بتعذيبه لك بل هذا كان جراء سوء اختيارك للطريق، ولو لم يمنحك الإرادة، ووسائل الإدراك من عقل وسمع وبصر لما قضى بتعذيبك، ثم من هو الضامن لك بالسعادة ورسول الله المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر كان يصلي ويقوم الليالي الطوال، ويصوم الأيام الكثار حتى أن البعض كان يقول له: أتفعل هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، فيرد عليهم قائلاً: أفلا أكون عبداً شكوراً.

كما أسردنا سابقاً أن الإنسان لا بد أن يسلك إحدى الطريقين، إما طريق الحق، وإما طريق الباطل، فلن يسلك طريق الباطل إلا الكفار الذين كفروا بالله وبطروا[44] نعمه عليهم، فارتكبوا كل ما يسخط الله من ذنوب وكبائر ومحرمات، ولم يتسلل الإيمان بتاتاً إلى قلوبهم، فهم بذلك لن يستحقوا من الله إلا الغضب والعذاب في الدنيا والآخرة.

قال تعالى:﴿**وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ**﴾[45] أما طريق الحق فلن يسلكه إلا المؤمنين المتقين الأبرار﴿**يوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا**﴾[46] بدأ الوفاء بالنذر لأن النذر واجب في حق الله جل ثناؤه، والوفاء مبالغة في وصفهم بالتوفر على أداء الواجبات، لأن من وفى بما أوجبه هو على نفسه لوجه الله كان بما أوجبه الله عليه أوفى، وفي الحديث:" من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصيه"[47].

وبعد أن ذكر الوفاء قال:﴿**يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا**﴾[48].

* فكأنه ذكر النية، فالمفروض أن كل عمل تقترن به النية فقوله:﴿**يُوفُونَ بِالنَّذْرِ**﴾[49] هذا العمل:﴿**وَيَخَافُونَ يَوْمًا**﴾[50]هذا النية، أما ﴿**شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا**﴾[51]أي يكون فاشياً منتشراً بالغاً أقصى المبالغ أي انتشر شره حتى بلغ السموات والأرض فلا يبقى ملك مقرب، ولا نبي مرسل إلا جثا على ركبتيه.

ومن صفات الأبرار أيضاً ﴿**وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا**﴾[52]، فالضمير في حبه (علام يعود)؟.

ذكر فيه أكثر من رأي، وإن كان الغالب:" على حبه" أي على حب الطعام وحاجتهم إليه، وهذا من باب الإيثار وهو أعلى المراتب، ويحتمل أن يعود الضمير على حب الإطعام، وهذا من باب " الإحسان" كما يحتمل أن يكون الضمير عائداً

على حب الله أي ابتغاء وجهه وهو من باب " الإخلاص" والأفضل أن يجمع المرء بين هذه الثلاثة.

ثم لماذا قال : (وتطعمون الطعام) ولم يكتف بقوله:(ويطعمون).

* ولو قذف الطعام لما عاد الضمير عليه، وهو الواجب الأول في باب الإيثار وبذلك يكون قد قضى أعلى صفة يجب أن يتصف بها المرء.

ومن الملاحظ أنه قال:" يطعمون" ولم يقل:" يتصدقون" لأنه أراد عموم فعل الخير سواء إن كان الفاعل غنياً أم فقيراً، تجب عليه صفة أم لا ؟ فالفعل صفات يشمل الصفة، وغير الصفة، فكل الصفات التي سبقت يتصف بها أصحاب الطريق الحق[53].

ثالثاً: نهاية الإنسان:

صحيح أن نهاية كل إنسان سواء كان مؤمناً أم كافراً هي الموت قال تعالى:﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ** ﴾[54].

فالموت هي نهاية الحياة الدنيا وبداية حياة البرزخ، أي الحياة الآخرة، أي أن الموت ليس نهاية الإنسان إنما هو محطة عبور من الحياة الدنيا إلى الآخرة.

فنهاية الإنسان الحقيقية إما سعادة دائمة وأما شقاء دائم، أي إما جنة وإما نار وهذا يتوقف على اختياره وما عمله في دنياه، فهو الذي يحدد مصيره ونهايته يقول جلا جلاله:﴿**إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا**﴾[55] يخبر الله عما أرصده للكافرين من خلقه بعد سوء اختيارهم، وقد أبصرهم إلى ذلك بأدلة العقل من السلاسل والأغلال والسعير وهو اللهب والحريق في نار جهنم[56].

فهذه الآيات تدل على الوعيد الذي أتبعه الله الفريق الكافر المكذب وبعد أن ذكر ما أعده لهؤلاء الأشقياء من السعير قال تعالى:﴿ **إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا** ﴾[57].

وهو جزاء السعداء من خلق الله، ونهايتهم التي أبصروها بحسن عملهم.

فقد علم ما في الكافور من التبريد والرائحة الطيبة مع ما يضاف إلى ذلك من اللذات في الجنة[58].

(فالكأس) هي الزجاجة إذا كان فيها شراب، فإن كانت فارغة فلا تسمى كأساً بل تسمى زجاجة، ففي هذه الآية والتي تليها:﴿**عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا**﴾[59].

ذكر صنفين من أصحاب الجنة وهما:

1- الأبرار: وهم يشربون من كأس ممتزجة بالكافور.

2- عباد الله: فقال تعالى: ﴿**عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّه**﴾[60].

عن أبي سهل عن الحسن قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم -: أربع عيون في الجنة عينان تجريان من تحت العرش أحدهما التي ذكر الله:﴿ **يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا**﴾[61]، (والأخرى الزنجبيل)، والأخريان نضاختان من فوق العرش إحدهما التي ذكر الله:" عينا فيها تسمى"(سلسبيلاً)، والأخرى (التسنيم)[62].

والذي يذهب إليه جمع من المفسرين أن المقصود بعباد الله هناء المقربون لأن كلمة عبد هي أرفع وسام يصف الله به عبده كما وصف نبيه ليلة الإسراء، فقال تعالى:﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا** ﴾[63].

فعدّى الفعل شرب في الآية الأولى (بمن)، وعدّى الفعل في الآية الثانية(بالباء) ليدل على أن جزاء المقربين أعلى من جزاء الأبرار، وقد قيل:" حسنات الأبرار سيئات المقربين"، فالأبرار يؤتى لهم بالكأس فيشربون منها، أما المقربون فيشربون بالعين وهذه الباء تفيد معنيين:

أ- معنى النزول، أي نزل بالعين أقام بها فهو في العين جالس وبالعين يشرب إذاً صار التلذذ هنا بالنظر والشرب، ثم إن الأبرار يشربون من كأس ممزوجة تمزج على قدر أعمالهم.

معنى تصميم معنى روى كما يقول عنه النحاة: فشرب به يعني ارتوى به، ويشربون بها تعني يرتوون بها، ثم قال﴿ **يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا**﴾[64] أي يجرونها حيث شاءوا، ثم قال :" تفجيراً" ليدل أنه ليس في تفجيرها عناء والتفجير هو الإسباع[65].

ذكرنا معنى عباد الله ولكننا لم نذكر معنى الأبرار، فيقول في ذلك أحد العلماء: أنها جمع (بر) أو(بار)، وعن الحسن: هم الذين لا يؤذون (الذر) والذر هو النمل كما ورد في الصحاح[66].

فمما سبق نلاحظ الفرق الكبير بين نهاية الفريقين، فالأول هي جهنم وبئس المصير، والله يقول تعالى عنها في آياته:﴿ **كَلَّا إِنَّهَا لَظَىٰ* نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ *تدعوا من أدبر وتولى وجمع فأوعى** ﴾[67]، وقوله تعالى:﴿ **إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ * كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ*وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ**﴾[68].

والثانية هي الجنة ونعيمها الدائم فقال تعالى عنها في محكم آياته:﴿ **إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ* فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ**﴾[69]، وقوله تعالى:﴿**إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ* وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ* كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ**﴾[70].

وقال جل وعلا: ﴿**إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ* هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ * لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ* سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ * وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ** ﴾[71].

وقيل: أصحاب الجنة في شغل بما هم فيه من اللذات والنعيم عن الاهتمام بأهل المعاصي، ومصيرهم إلى النار، وما هم فيه من أليم العذاب وإن كان فيهم أقرباؤهم وأهلوهم، وقيل في ضيافة الله تعالى: روي أنه إذا كان يوم القيامة نادي مناد: أين عبادي الذين أطاعوني، وحفظوا عهدي بالغيب، فيقومون كأنما وجوههم البدر والكوكب الدريّ، ركبانا على نجب من نور زمتها من الياقوت، تطير بهم على رؤوس الخلائق ، وحتى يقفوا بين يدي العرش، فيقول الله جل وعز لهم : السلام

على عبادي الذين أطاعوني وحفظوا عهدي بالغيب، أنا اصطفيتكم وأنا اجتبيتكم اخترتكم، اذهبوا وادخلوا الجنة بغير حساب.

فـ﴿**لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ**﴾[72]، فيمرون على الصراط كالبرق الخاطف تنفتح لهم أبوابها.

وروي عن أبي هريرة أن رسول الله قال:" إذا كان يوم القيامة جمع الله الإنس والجن، والأولين والآخرين في صعيد واحد، ثم أشرف عنق من النار على الخلائق فأحاط بهم، ثم ينادي مناد: ﴿**هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ** ﴾[73] فحينئذ تجثوا الأمم على ركبها.

وفي قوله تعالى:﴿ **يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ** ﴾[74].

وقال الضحاك: يمتاز المجرمون بعضهم من بعض فيمتاز اليهود فرقة، والنصارى فرقة، والمجوس فرقة، والصابئون فرقة، وعبدة الأوثان فرقة، وإن لكل فرقة في النار بيتاً تدخل فيه ويرد بابه، فتكون فيه أبداً لا ترى ولا تُرى[75].

وفي الختام أسأل الله تعالى

أن يوفقنا جميعاً إلى كل خير وأن يجنبنا كل شر، اللهم إنا نسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين وآخر دعونا أن الحمد الله رب العالمين، وصل الله وسلم وبارك على أشرف خلقه نبينا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين وجعلنا وآياكم من أصحاب الجنة.

المراجع:

1- القرآن الكريم.
2- تفسير ابن كثير القرشى الدمشقي، دار الكتاب العربي.
3- تفسير الكشاف للزمخشري، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
4- تفسير الكبير أو مفاتيح الغيب للامام فخر الدين الرازي، المكتبة التوفيقية.
5- تفسير القرآن العظيم لابن كثير، دار احياء التراث العربي.
6- التفسير العلمي للقرآن في الميزان، لأحمد عمر أبو حجر، دار قتيبة.
7- التعبير القرآني، فاضل صالح السامرئى، دار عمار.
8- السمع والبصر في القرآن الكريم لعلى محمد سلامة، 1395هـ - 1986م.
9- الصحاح للجوهري، دار العلم للملايين، بيرون، لبنان.
10- الجامع لأحكام القرآن لابي عبد الله محمد الأنصاري القرطبي، دار الكتب ، بيروت، لبنان.
11- لسان العرب للامام العلامة ابن منظور.
12- كفاية المسلم في الجمع بين صححي البخاري ومسلم لمحمد أحمد بدوى، دار الريان للتراث.

الهوامش:

(1) سورة الإنسان، الآية: 1.

(2) تفسير ابن كثير: ج 7، دار الأندلسي، بيروت، ص 177.

(3) تفسير الكشاف للزمخشري، ج4، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ص : 194.

(4) سورة الإنسان، الآية: 1.

(5) سورة الإنسان، الآية: 1.

(6) الجامع لأحكام القرآن أبو عبد الله القرطبي، ج 19، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص: 78.

(7) التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب للإمام فخر الدين الرازى، ج 29، المكتبة التوفيقية، ص:220.

(8) سورة المؤمنون، الآية: 14.

(9) سورة نوح، الآية : 14

(10) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج18، ص: 1690.

(11) الجامع لأحكام القرآن للإمام أبوعبد الله محمد الأنصاري القرطبي، ج 19، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص: 196.

(12) سورة الحج، الآية :6.

(13) الجامع لأحكام القرآن للإمام أبو عبد الله الأنصاري، ص:19- 78-79.

(14) سورة المؤمنون، الآية:2

(15) سورة الحجر، الآية28.، الآية : 2.

(16) التفسير العلمي للقرآن في الميزان لأحمد عمر أبو حجر، دار قتيبة، بيروت، ص:246.

(17) سورة الإنسان ، الآية: 2.

(18) ينظر: التعبير القرآني ، فاضل صالح السامرائي، 1998م، ص:55.
(19) تفسير ابن كثير، ج7، مصدر سابق، ص: 177.
(20) الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله القرطبي، ج19، مصدر سابق، ص79.
(21) سورة الطارق، الآية: 5 – 6 – 7.
(22) الكشاف للمزخشري، ج4، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ص: 24.
(23) الكشاف للزمخشري، ج6، مكتبة العبين، الرياض،1418 هـ – 1998م، ص:274.
(24) الجامع لأحكام القرآن لأبي عبدالله القرطبي، ج19،ص79.
(25) انظر التفير العلمي للقرآن في الميزان لأحمد عمر أبو حجر، دار قتيبة، 1411هـ–1991م، ص:246.
(26) سورة الحج، الآية: 5.
(27) الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله القرطبي، ج12، ص:7.
(28) الجامع لأحكام القرآن لأبي عبدالله القرطبي، ج 12، ص 7 – 8.
(29) وكفاية المسلم في الجمع بين صحيحي البخاري ومسلم، 59، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة،ج2، ص:423.
(30) سورة الإنسان، الآية:2 – 3.
(31) ينظر: الكشاف للزمخشري، ج4، ص: 195، دار المعرفة، بيروت.
(32) سورة الإنسان ، الآية:2 .
(33) الجامع لأحكام القرآن لأبي عبدالله القرطبي، ج19، ص: 79.
(34) سورة الملك، الآية:2.
(35) الجامع لأحكام القرآن لأبي عبدالله القرطبي،ج18، ص: 134 – 135.
(36) ينظر: السمع والبصر في القرآن الكريم لعلي محمد سلامة، ص: 84، 1395 هـ – 1986م.

(37) سورة الإنسان، الآية:3.

(38) تفسير ابن كثير، ج 17، ص: 173، دار الأندلس.

(39) تفسير ابن كثير: ج7، مكتبة الأندلس، بيروت، ص:178.

(40) الكشاف للزمخشري، ج6، مكتبة العبيان، ص:275.

(41) سورة فصلت، الآية: 45.

(42) سورة الإسراء، الآية:15.

(43) سورة هود، الآية:117.

(44) وقيل الطغيان في النعمة، وقيل البطر عند النعمة وطول الغنى ينظر: لسان العرب لابن منظور، ج1، ص:300.

(45) سورة آل عمران، الآية:97.

(46) ينظر : الجامع لأحكام القرآن للقرطبي،ج19، ص:83.

(47) ينظر: الكشاف للزمخشري، ج4، دار المعرفة، بيروت، ص:196.

(48) سورة الإنسان، الآية:7.

(49) سورة الإنسان، الآية:7.

(50) سورة الإنسان، الآية:7.

(51) سورة الإنسان، الآية:7.

(52) سورة الإنسان، الآية:8.

(53) ينظر: التعبير القرآني ، فاضل صالح السامرائي، دار عمار، ص: 55-265.

(54) سورة الأنباء، الآية: 35، وسورة آل عمران ، الآية : 185.

(55) سورة الإنسان، الآية:4.

(56) تفسير ابن كثير القرشى الدمشقي، 360 – 361 ، ج 7، دار الكتاب العربي، ص: 360 – 361.

(57) سورة الإنسان ، الآية: 5

(58) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ج3، أحياء التراث العربي، ص:609.

(59) سورة الإنسان، الآية:6.

(60) سورة الإنسان، الآية:6

(61) الإنسان ، الآية : 6.

(62) الجامع لأحكام القرآن لأبي عبدالله القرطبي، ج19، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص: 33.

(63) سورة الإسراء، الآية: 1.

(64) سورة الإنسان، الآية:6.

(65) الكشاف للزمخشري، ج4، دار أحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ص:668.

(66) انظر: الصحاح للجوهري، ج2، دار العلم الملايين، بيروت، لبنان، ص: 663.

(67) سورة المعارج، الآية: 15 – 16 – 17 – 18.

(68) سورة المرسلات، الآية:32 – 33– 34.

(69) سورة القمر، الآية 54– 55.

(70) سورة المرسلات، الآية: 41 –42– 43– 44.

(71) سورة يس، الآية:55– 56– 57 –58.

(72) سورة الزخرف،الآية:88.

(73) سورة الحج، الآية:2.

(74) سورة الحج، الآية:2.

(75) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ج15، ص: 32.